

القراءة النسقية للقرآن الكريم عند المستشرق الياباني: «توشيهيكو إيزوتسو»

د. فريدة زمرد ♦

منذ منتصف القرن العشرين الميلادي برزت دراسات استشراقية جديدة حول القرآن الكريم، اعتنت بقراءة النص القرآني باعتباره بنية متماسكة، ووحدة كلية.. وقد حاول أصحابها تقديم رؤية القرآن الكريم للعالم، والكون والوجود قاطبة، متوسلين في ذلك بعدة منهجية فكرية، ولغوية، وثقافية، مع استحضار فريد لما توصلت إليه أحدث النظريات العلمية في مجال علم الدلالة، والتحليل الدلالي.

ويعد الباحث الياباني توشيهيكو إيزوتسو؛ الأستاذ بمعهد الدراسات الثقافية واللغوية بجامعة كيو بطوكيو، أحد أبرز المستشرقين الذين عمدوا إلى دراسة القرآن الكريم بتطبيق منهج التحليل الدلالي على المعجم اللغوي القرآني، عبر رصد دلالات الألفاظ وتطورها.

♦ أستاذة التفسير وعلوم القرآن بدار الحديث الحسنية - الرباط.

وقد اتفق جل الباحثين الذين اطلعوا على كتب المؤلف على وصفه بالرزانة العلمية والجدية والموضوعية والتبصر.

1. المرجعية الفلسفية لقراءة إيزوتسو¹ للقرآن الكريم

يصرح إيزوتسو بنوعية الدرس الذي سيعتمده في دراسته للقرآن الكريم، وهو الدرس الدلالي²، وقد برر ذلك بقابلية القرآن للدرس من جهات نظر مختلفة في

1. توشيهيكو إيزوتسو باحث ياباني «1914-1993». حصل على درجة الدكتوراه في الآداب من جامعة كيُو اليابانية. وشغل بها منصب أستاذ في معهد الدراسات الثقافية واللغوية. وعمل أستاذًا زائرًا في معهد الدراسات الإسلامية في جامعة مكجل في كندا، حيث كان يمضي ستة أشهر من كل عام يدرّس علم الكلام والفلسفة عند المسلمين. كما درس في المعهد الملكي لدراسة الفلسفة بإيران. وكتب دراساته باليابانية والإنكليزية، وكان على معرفة بالعربية والفرنسية والألمانية. مؤلفاته بالإنكليزية:

. اللغة والسحر: دراسات في الوظيفة السحرية للكلام Language and Magic: Studies in the Magical Function of Speech. وقد نشرته جامعة كيُو في طوكيو عام 1956م.
. بنية التعبيرات الأخلاقية في القرآن The Structure of the Ethical Terms in the Koran. وقد نشرته جامعة كيُو عام 1959م.
. بين الله والإنسان في القرآن، وقد أصدرته جامعة كيُو في طوكيو عام 1964م.
. مفهوم الإيمان في علم الكلام الإسلامي The Concept of Belief in Islamic Theology. وقد صدر عن معهد كيُو للدراسات الثقافية واللغوية. طوكيو: 1965، وهو الآن قيد الترجمة.
. دراسة مقارنة للمفاهيم الفلسفية المفتاحية في الصوفية والطاوية.

أهم مصادر المؤلف التي لها تعلق بنظرته الخاصة أو قراءته الخاصة للقرآن الكريم:

. كتاب «الله والإنسان في القرآن»، دراسة دلالية لنظرة القرآن إلى العالم» صدر سنة 1964 بمعهد كيُو للدراسات الثقافية واللغوية، ثم أعيد طبعه سنة 2002 بماليزيا مع مراجعة الباحث الباكستاني فضل الرحمن.
. وفي سنة 2007 صدرت ترجمتان للكتاب إلى اللغة العربية: الأولى: ترجمة: د. عيسى العاكوب بدار الملتقى بحلب، والثانية: ترجمة د هلال محمد الجهاد. في بيروت عن المنظمة العربية للترجمة، وتوزيع مركز دراسات الوحدة العربية.
. وكتاب «بنية التعبيرات الأخلاقية في القرآن»، الذي نشرته جامعة كيُو عام 1959م، وقد ترجمه علي عيسى العاكوب سنة 2007 إلى العربية بعنوان «المفاهيم الأخلاقية - الدينية في القرآن».

2. الله والإنسان في القرآن، دراسة دلالية لنظرة القرآن إلى العالم، توشيهيكو إيزوتسو، ترجمة: عيسى العاكوب، دار الملتقى، حلب، 2007م. وترجمة هلال محمد الجهاد. المنظمة العربية للترجمة، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2007م، 27.

مجالات كثيرة كعلم الكلام والفلسفة وعلم الاجتماع والنحو والتفسير، ومن ثم بإمكاننا أن «نرى ما إذا كان ثمة أية مزية حقيقية في تناول الكتاب المقدس في الإسلام من هذه الزاوية المحددة»¹. يقصد الزاوية المنهجية القائمة على علم الدلالة .

يعتبر إيزوتسو أحد أبرز
المستشرقين الذين طبقوا
منهج التحليل الدلالي على
الدرس القرآني

فالعمل الذي سيقوم به يتمثل أساساً في تطبيق منهج التحليل الدلالي أو المفهومي على المعجم اللغوي القرآني، وهو المنهج الذي يرصد «دلالات الألفاظ وتطورها»²، وهو يرى أن أهمية

العمل بالنسبة للمسلمين تكمن في الجانب المنهجي أكثر من الجانب الموضوعي، لأنهم مهتمون منذ القديم بالمسائل المفهومية فيما يتصل بالقرآن، لكنهم لم يكن من اهتمامهم «المعرفة التخصصية في موضوع علم الدلالة ومنهجيته»³.

وللتعريف بهذا المنهج الذي اختاره المؤلف لدراسة القرآن الكريم، نتوقف عند نقطتين:

الأولى للتعريف بعلم الدلالة عموماً وفي تصور المؤلف والفلسفة التي توجه هذا التصور.

والثانية لبيان مفهوم منهج التحليل الدلالي عنده، المستمد من تصوره الخاص لعلم الدلالة ولطبيعة النص القرآني.

علم الدلالة

يقر إيزوتسو منذ البداية بصعوبة تحديد مفهوم علم الدلالة، والسبب في ذلك أن علم الدلالة علم يبحث في "ظاهرة المعنى"، وموضوع "المعنى" واسع

1 . نفس المصدر، 28.

2 . الله والإنسان في القرآن ، 29.

3 . نفس المصدر، 28.

«إلى حد أنه يمكن القول تقريبا إن أي شيء يمكن أن يعد ذا معنى - أيا كان هذا المعنى - مؤهل تماما لأن يكون أحد موضوعات علم الدلالة»¹، لذلك فهو يرى أن علم الدلالة من حيث هو دراسة للمعنى يمكن أن يكون «نمطا جديدا من الفلسفة مبنيا على تصور جديد تماما للكون والوجود وشاملا لأفرع مختلفة ومتنوعة جدا من أفرع العلم التقليدي»².

وإذا كان علم الدلالة بهذا الاتساع المفهومي، فإن المؤلف لا يجد حرجا من تقديم تصوره الخاص لهذا العلم بناء على اختياراته الفلسفية والوجودية، فيقول: «فإن علم الدلالة كما فهمته: دراسة تحليلية للتعبير [المصطلحات] المفتاحية Key Terms في لغة من اللغات، ابتغاء الوصول أخيرا إلى إدراك مفهومي للنظرة إلى العالم لدى الناس الذين يستخدمون تلك اللغة أداة - ليس فقط للتحدث - بل أيضا - وهذا أكثر أهمية - لتقديم مفهومات وتفسيرات للعالم الذي يحيط بهم»³. إنه بتعبير آخر «دراسة لطبيعة النظرة إلى العالم وبنية هذه النظرة لدى إحدى الأمم في مرحلة مهمة من تاريخها، وذلك من خلال تحليل منهجي منظم للمفاهيم الثقافية التي أنتجتها الأمة نفسها وبلورتها في المفردات المفتاحية الدالة في لغتها»⁴.

إن ربط المؤلف لعلم الدلالة بالنظرة إلى العالم يحيلنا على فلسفات لم يكن هو السباق إلى بنائها، كما يؤكد ذلك بنفسه في كتابه «المفاهيم الأخلاقية الدينية في القرآن» الذي سار فيه على نفس المنهج وفيه يعلن: «إن نظرية المعنى التي تشكل الأساس للبنية الكلية للعمل الراهن ليست البتة إسهاما أصيلا لي. بل

1 . نفس المصدر: 29.

2 . نفس المصدر، 29.

3 . نفس المصدر، 30.

4 . نفسه.

هي مبنية على نمط خاص لعلم الدلالة طوره وأحكمه في ألمانيا الغربية الأستاذ ليو فايسجربر Leo Weisgerber وهو يسميه التصور اللغوي للعالم، وتتفق نظريته... في خلاصتها الرئيسية مع ما هو معروف عادة اليوم بـ "علم اللغة العرقي"¹ Ethnolinguistics وهي نظرية للعلاقات بين الأنماط اللغوية والأنماط الثقافية وضع أساسها إدوارد سايبير² في سنيه الأخيرة في الولايات المتحدة³.

تتلخص إذن المرجعية الفلسفية لإيزوتسو في قراءته للقرآن الكريم في مرجعيتين أساسيتين:

1. مرجعية تؤول إلى فلسفة الوجود، وهو يعلن ذلك بوضوح حين يرى أنه بناء على نظرية "النظرة إلى العالم" «سيكون علم دلالات الألفاظ وتطورها. في هذا المعنى. نوعا من علم الوجود Ontology»⁴، ويمكن أن نتلمس ملامح لهذا المنحى الأنطولوجي في تحليله ودراسته لبعض المفاهيم القرآنية، كدراسته لمفهوم "الآيات" مثلا.

2. مرجعية تؤول إلى علم الإنسان أو الأنثروبولوجيا، وهذا يبدو واضحا في ربطه بين اللغة والثقافة⁵، وإشارته الصريحة إلى علم اللغة العرقي، المرادف لما يسمى بعلم الإنسان اللغوي «أو الأنثروبولوجيا اللغوية»، كما يفهم أيضا من تلميحه أثناء بيانه للمقصود بالمعنى السياقي⁶، أن دراسة هذا المعنى

1. لعله من الأفضل ترجمة الكلمة هنا بعلم اللغة "الإثني"، لما لكلمة العرق من معنى قدحي، قد يفهم منه أن العرق له دخل في اللغة، وهي فكرة تذكى بعض الآراء المتعصبة.

2. عالم أمريكي متخصص في علم الإنسان «الأنثروبولوجيا» وعلم اللغة، 1884-1939م

3. المفاهيم الأخلاقية - الدينية في القرآن، توشيهيكو إيزوتسو، ترجمة: عيسى العاكوب، دار الملتقى، حلب، 2007م، 49

4. الله والإنسان: 30

5. وقد عقد مدخلا في كتاب المفاهيم الأخلاقية بعنوان "اللغة والثقافة" لبيان هذا البعد في تصوره.

6. سيأتي بيان المقصود بالمعنى السياقي في الفقرات التالية.

تستلزم «بحثاً دقيقاً ويقظاً في الوضع الثقافى العام للعصر والناس...»¹. وهو هنا يزواج بين حقلين معرفيين حقل الدراسات اللغوية وحقل الدراسات الأنثروبولوجية.

القراءة النسقية للقرآن الكريم

أسس القراءة النسقية عند إيزوتسو

ينطلق إيزوتسو في دراسته للقرآن الكريم من تصور فلسفي ينزع إلى دراسة المفاهيم الكلية، باعتبارها مداخل إلى فهم التصورات الوجودية لأصحابها، ومن ثم، فهو سيدرس القرآن انطلاقاً من منظومته المفهومية التي ضمنها مصطلحاته و تعبيراته، ولمزيد من الشمولية والكلية، سيركز على المصطلحات المفتاحية والصميمية، أي تلك التي يراها أساسية ومهمة لفهم البنية المفهومية للقرآن كله، ولهذا السبب كان اختياره لموضوع الله والإنسان، في دراسته. ولهذا السبب وسمنا قراءته بالنسقية، ويمكن بيان أسس هذه القراءة بشيء من التفصيل من خلال مجموعة من الأسس المنهجية التي جعلها منطلقاً لدراسة المصطلحات المفتاحية في القرآن الكريم:

النظام المفهومي للقرآن الكريم

يرى إيزوتسو أن القرآن الكريم استعمل اللغة العربية باعتبارها معجماً لغوياً أو نظاماً مفهومياً، وهذا المعجم اللغوي ليس عبارة عن مفاهيم مستقلة (كمفهوم الله والإنسان والنبي والإيمان والكفر...) بل هي «تؤلف فيما بينها مجموعات [من العلاقات] متنوعة... مرتبطاً كل منها بالآخرى... وهكذا تؤلف في النهاية

1. الله والإنسان: 46

كلا منظما، شبكة غاية في التعقيد والتركيب من الترابطات المفهومية¹. نفهم من هذا أن غاية درسه هو النظام المفهومي وليس المفاهيم المستقلة أو الفردية. ورغم أنه لا يدرس القرآن الكريم آية آية؛ وسورة سورة، فهو باستطاعته فهم التصور القرآني للوجود والعالم، لله والإنسان، انطلاقا من دراسة جملة من المفاهيم والمصطلحات القرآنية، وحتى تتضح الصورة أكثر يرسم إيزوتسو صورة لهذا النظام المفهومي الذي ينطلق منه، ويوضح كيف أنه يمكن أن يلخص القرآن كله:

منظومة المفهومات القرآنية
منظومة تختلف جذريا عن
المنظومات غيرالقرآنية
سواء إسلامية كانت أم غير
إسلامية

فالنظام المفهومي² ويسميه أيضا بالمعجم اللغوي³، يتكون من مجموعة من الحقول الدلالية، وداخل الحقل الدلالي توجد الكلمات المفتاحية، وبينها توجد الكلمات الصميمة⁴. والكل يتمظهر من خلال شبكة من العلاقات

المفهومية التي تشكل التضادات المفهومية معظمها، بهذا الشكل فإن دراسة هذه التعابير المفتاحية والصميمة سيوصل دون شك إلى فهم الرؤية القرآنية للعالم.

ويرى إيزوتسو أن هذا التصور هو نفسه الذي تعامل به القرآن الكريم مع لغة العرب، ذلك أن التغيير الذي أحدثه القرآن الكريم في اللغة العربية، لم يكن تغييرا في الكلمات في حد ذاتها، بل في الاستعمال السياقي للمفاهيم والكلمات

1 . الله والإنسان: 31

2 . نفس المصدر: 60

3 . لأنهما مظهران لشيء واحد، فاللغوي هو الوجه الآخر للمفهوم، والمفهوم لا توجد له كينونة إلا إذا صيغ في شكل لغوي.

4 . سيأتي بيان معاني هذه المصطلحات في الفقرات اللاحقة.

الذي ميزها عما كانت عليه قبل نزول القرآن، «وعندما بدأ الوحي الإسلامي باستخدام هذه الكلمات كان النظام كله، أي السياق العام الذي استخدمت فيه هو الذي صدم مشركي مكة بوصفه شيئاً غريباً تماماً وغير مألوف، ولذلك غير مقبول، وليست الكلمات الفردية والمفاهيمات نفسها»¹. هذا التغيير والتطور في المفاهيم، والتحول الجذري للقيم الدينية والخلقية الذي نشأ عنه، هو أساساً، الذي أحدث «الثورة في تصور العربي للعالم والوجود الإنساني، ومن وجهة نظر دارس دلالي مهتم بتاريخ الفكر فإن هذا نفسه - وليس شيئاً آخر - هو الذي أعطى للرؤية القرآنية للكون، المتميزة على نحو جلي تماماً، صبغة خاصة»².

إن وجود مستويين من الاستعمال للكلمات والمفاهيم منفردة أو ضمن نظام مفهومي، يفرض على المؤلف أن يميز بينهما - طبقاً للمفاهيم المنهجية في علم الدلالة - وهو ما قام به حين ميز في تحليله الدلالي بين مستويين من المعاني: المعنى الوضعي والمعنى السياقي.

المعنى الوضعي والمعنى السياقي³

يقصد بالمعنى الوضعي: المعنى الذي يكون للكلمة حين تكون مفردة ومعزولة، «أو محتواها المفهومي الذي تظل محتفظة به حتى لو اقتطعناها من سياقها القرآني»⁴. أما المعنى السياقي أو العلاقي: فالمقصود به أن الكلمة «بمجرد أن تدخل في نظام خاص، وتعطى مكاناً محدداً معيناً فيه تكتسب عدداً وافراً من العناصر الدلالية الجديدة المنبثقة من هذا الوضع الخاص، وكذلك من العلاقات

1 . الله والإنسان: 32

2 . نفسه.

3 . في طبعة المنظمة العربية للترجمة يستعمل المترجم د. هلال محمد الجهاد كلمة "الأساسي" و"العلاقي"، 43.

4 . الله والإنسان، ترجمة هلال الجهاد، 43.

المختلفة بالمفاهيم الرئيسية الأخرى في ذلك النظام¹. ولتوضيح هذا الفرق بين المعنيين يعطي إيزوتسو مثالا بكلمة "يوم": فمعناها الوضعي: نهار، لكن بمجرد وضعها ضمن النسق المفهومي للقرآن، وضمن حقل دلالي مرتبط بالآخرة، وبإزاء كلمة أخرى كالقيامة، تصطبغ بصبغة أخروية واضحة، ويصبح لها معنى آخر يحدد طبيعة نظرة القرآن إلى العالم. مع العلم أن درجة التحول هذه من المعنى الوضعي إلى المعنى السياقي قد تصل من القوة بحيث تفقد معها الكلمة معناها الأصلي، وحين يحدث هذا فنحن «نشهد ولادة كلمة جديدة» ويمثل لذلك بفعل "كَفَرَ"².

إن التمييز بين هذين المستويين من المعنى أمر جوهري في الفلسفة التي تميز قراءة إيزوتسو للقرآن الكريم، وذلك لأن المعنى السياقي، الذي يكتسب خصوصيته من نسقيته؛ هو الذي يحدد النظرة إلى العالم التي تميز استعمال الناس للغة، «لأن ما نسميه معنى سياقيا لكلمة ليس سوى تجل عيني، أو تبلور لروح الثقافة، وانعكاس أكثر أمانة للميل العام، النفسي وغيره، لمن يستخدمون الكلمة بوصفها جزءا من معجمهم اللغوي»³.

وعلى هذا الأساس يتم التمييز بين الكلمات التي تشكل النسق المفهومي في لغة من اللغات، فليست الكلمات كلها على قدر واحد من الأهمية، بحيث تساعد الدارس على «تشكيل البنية الأساسية للتصور الوجودي الذي يمثل أساس المعجم»⁴، بل هي صنف محدد من الكلمات: الكلمات المفتاحية والكلمات الصميمية.

1 . الله والإنسان: 40.

2 . نفسه، 43.

3 . الله والإنسان: 46.

4 . نفسه، 47.

الكلمات المفتاحية¹ والكلمات الصميمة

فالكلمات أو التعابير أو المصطلحات المفتاحية هي تلك التي «تلعب دورا حاسما في تشييد البنية المفهومية الأساسية لنظرة القرآن إلى العالم»² ويمثل لها المؤلف بمصطلحات: الله والإسلام والإيمان والكفر والنبي والرسول...

إلى جانب الكلمات المفتاحية نجد الكلمات الصميمة³ Focus word وهي كلمات مفتاحية بدرجة عالية من الأهمية، بحيث تشكل «مجالا مفهوميا مستقلا ومتميزا نسبيا، أي حقلًا دلاليًا... ضمن الكل الواسع للمعجم اللغوي»⁴، إنها بمعنى آخر «المركز المفهومي لقطاع دلالي مهم من المعجم اللغوي»⁵. على أن الوضعية التي تتخذها الكلمات الصميمة داخل النظام المفهومي ليست ثابتة، وهنا ينبه إيزوتسو إلى مرونة هذا المفهوم، فالكلمة الصميمة في حقل دلالي ما قد تكون مجرد تعبير مفتاحي في حقل دلالي آخر، وذلك ككلمة "الله" فهي كلمة صميمة في القرآن الكريم، لكنها تصبح مجرد تعبير مفتاحي إذا استعملت في حقل دلالي تشكل فيه كلمة "إيمان" الكلمة الصميمة.

من هنا يبدو أن مفهوم "الكلمة المفتاح" أو "الكلمة المركز" مفهوم محوري في دراسته، إنها المفتاح الذي منه يلج الدارس إلى "المنظومة الكلية للمفاهيم القرآنية" وهي منظومة يرى إيزوتسو، ويبرهن على طول الكتاب أنها مؤسسة على نمط خاص من الفكر القرآني، مختلفة جذريا عن المنظومات غير القرآنية؛

1 . في طبعة دار الملتقى استعمل المترجم علي عيسى العاكوب كلمة: "التعابير المفتاحية" وفي طبعة المنظمة العربية للترجمة، استعمل المترجم كلمة: "مصطلحات مفتاحية"، ولعلها الترجمة الأقرب إلى الأصل Key Terms.

2 . نفسه، 48.

3 . في طبعة المنظمة العربية: "الكلمة المركز".

4 . نفسه، 53.

5 . نفسه.

إسلامية كانت أم غير إسلامية، وهو ما يحيلنا على أهمية ملاحظة الفروق بين هذه المنظومات.

بين نسقية المفاهيم القرآنية وتطورها

مفهوم "الله" و"الإنسان"
من المصطلحات المفتاحية
والصميمية لفهم البنية
المفهومية للقرآن كله وفهم
الرؤية القرآنية للعالم

قد يفهم من المبادئ الأساسية للتحليل الدلالي الذي ما فتئ إيزوتسو يشرحها ويوضحها أن الدارس سيظل حبيس النسق المفهومي للقرآن الكريم ببعده المغلق، لكننا نجده في أعقاب كل ما أورده لشرح هذه المبادئ، يشير إلى عنصر

التاريخ في هذا النوع من الدرس، ويعقد فصلاً بعنوان "التعابير المفتاحية القرآنية في التاريخ"، فإلى جانب دراسة المفاهيم في بنيتها «الساكنة». إذا جاز التعبير. كما استعملت في القرآن الكريم. سيدرسها في بعدها التعاقي المتغير، أي في تطورهما من الاستعمال الجاهلي، "قبل-القرآني"، إلى الاستعمال القرآني، بل إنه حتى على مستوى القرآن الكريم نفسه يمكن ملاحظة هذا المستوى التعاقي، ف«لغة القرآن نفسها قد تعد عملية تاريخية تمتد على قريب من عشرين سنة في مرحلتين متميزتين، المكية والمدنية»¹. ولبيان مظاهر هذا التطور الدلالي بشكل إجمالي، يميز إيزوتسو بين ثلاثة مستويات دلالية في تاريخ المعجم اللغوي العربي:

- ما قبل القرآني، أو الجاهلي

- القرآني

- ما بعد القرآني

1. في طبعة المنظمة العربية: "الكلمة المركز"، 67.

وقد ساق مجموعة من الأمثلة برهن من خلالها على التطور الحاصل في بعض المفاهيم على المستويات الثلاثة، كمفهوم الله، ومفهوم العلم، ومفهوم العقل. لكنه سيثبت بشكل أكثر تفصيلاً وعمقاً ودقة طبيعة هذا التطور الدلالي للمفاهيم من المعجم اللغوي الوثني أو الجاهلي. كما يسميه نسبة إلى الفترة التاريخية التي وجد فيها - إلى المعجم القرآني. ولأن إيزوتسو خبير بالشعر الجاهلي وباللغة العربية، فقد أبدع في استخدام ثقافته تلك في رصد هذا التطور في العديد من المفاهيم التي درسها مثل: (الله، الجنة، النار، الوحي، النبي...).

تلك إذن أهم الأسس المنهجية التي تنبني عليها القراءة النسقية للقرآن الكريم عند إيزوتسو، والتي لا يتوقف فيها الدارس عند معاني الكلمات، معزولة، بل يدرسها ضمن نسق عام أو نظام كلي، ويذهب إيزوتسو إلى أبعد من ذلك حين يعتبر ذلك النسق مدخلا لمعرفة الرؤية التي ميزت نظرة القرآن إلى الكون والحياة. وذلك ما حاول تطبيقه من خلال دراسة لبعض المفاهيم الأساسية التي تتدرج تحت مفهومي (الله والإنسان).

نسقية المفاهيم القرآنية: "الله والإنسان" أنموذجا

يمكن القول إن العلاقة بين الله والإنسان تلخص التصور الديني العام للعالم، فهذه العلاقة من شأنها أن تجيب على العديد من التساؤلات الفلسفية والوجودية الكبرى من مثل: من خلق الإنسان ومنحه الوجود؟ وما صفات الخالق؟ ولم خلق الإنسان؟ وما مصيره؟ وما واجباته تجاه خالقه؟ كل ذلك وغيره يشكل أسس العلاقة التي تربط الإنسان بالله عز وجل.

لذلك انطلق إيزوتسو من هذين المفهومين المتقابلين الأساسيين في القرآن الكريم ليعرض الرؤية القرآنية للعالم القائمة على طبيعة هذه العلاقة، وهو ما يؤكد - على المستوى التطبيقي - نسقية المفاهيم القرآنية.

ويمكن تلخيص هذه الرؤية في ارتكازها على مبدأ التفاعلية في العلاقة بين الله والإنسان، الله في التصور القرآني - كما يرى إيزوتسو - يحيط بشؤون البشر، ينزل الآيات، يهدي ويضل، يبشر وينذر، يعد ويوعد... والإنسان يستجيب فيصدق أو يكذب، يشكر أو يجحد، يؤمن أو يكفر، يدعو ويصلي ويعبد... كل ذلك يلخص هذه الإيجابية في علاقة الله بالإنسان.

هذه الرؤية أبدع إيزوتسو في تصويرها انطلاقاً من القرآن الكريم، حيث حدد هذه العلاقة في أربعة مستويات، وفي كل مستوى درس مجموعة من المفاهيم القرآنية المؤطرة لكل علاقة: علاقة وجودية، وعلاقة اتصالية، وعلاقة الرب - العبد/عبودية، وعلاقة أخلاقية.

البنية الأساسية للرؤية القرآنية للعالم

لما كان الدرس الدلالي لهذه الرؤية سينصب عليها باعتبارها كلا منظماً «أو نسقاً» لا كلمات مستقلة، وانطلاقاً من الكلمات المفتاحية دون غيرها - كما هو مقرر في منهج التحليل الدلالي، كان لابد من البدء بوضع "المخطط العام للبنية الأساسية لنظرة القرآن إلى العالم". هذه البنية يراها إيزوتسو قائمة على مجموعة من التقابلات المفهومية هي التي تشكل هذا المخطط العام، وتتلخص هذه التقابلات في:

الله ⇔ الإنسان

الغيب ⇔ الشهادة

الدنيا ⇔ الآخرة

وكلها تقابلات تدخل في صميم موضوع العلاقة بين الله والإنسان، لكن المؤلف سيركز في دراسته على التقابل الأول والأساس: الله والإنسان.

وقبل عرض البنية الأساسية لعلاقة الله بالإنسان، نشير بإيجاز إلى هذا المخطط العام الشامل للتضادات الثلاثة:

أولاً: الله والإنسان، تحكمها أربع علاقات:

علاقة وجودية: وضمنها نجد مفهوم الخلق، ومفهوم القدر أو المصير.

علاقة اتصالية: وفيها نجد في مستوى اتصال الله بالإنسان، مفاهيم: الآيات والهدى الوحي، وفي مستوى اتصال الإنسان بالله، نجد مفاهيم: التصديق والتكذيب والصلاة والدعاء.

علاقة عبودية: أي علاقة عبد برب، وفيها نجد مفاهيم: الطاعة والخضوع، والإسلام، والعصيان والاستكبار والجاهلية.

علاقة أخلاقية: وفيها نجد من جهة الله مفاهيم: الرحمة والمغفرة، والغضب والانتقام والعقاب، ومن جهة الإنسان نجد مفاهيم: الشكر والتقوى والإيمان والجحود والكفر.

ثانياً: الغيب والشهادة

الغيب هو الجزء غير المرئي من عالم الوجود، وهو تحت تصرف الله وحده. والشهادة هو الجزء المرئي من عالم الوجود، وهو تحت تصرف الله ثم الإنسان.

ثالثاً: الدنيا والآخرة

والعلاقة بينهما يطبعها التضاد والتلازم أيضاً؛ إذ تستلزم كل واحدة منهما الأخرى. الدنيا هي العالم كما يعرفه الإنسان ويعيش فيه، والآخرة هي عالم مغاير لذلك الذي يعيش فيه. وبين الدنيا والآخرة نجد مفهومات هي بمثابة حقل دلالي وسيط بين الدنيا والآخرة: البعث والنشور والحشر، وفي الآخرة نجد مفهومين متضادين أيضاً هما: الجنة وجهنم.

وفي دراسته المجملة لهذه التقابلات يعرج إيزوتسو - طبقا لمنهجه - على التصورات قبل القرآنية لهذه المفهومات، مستخلصا من كل ذلك أن العرب الوثنيين، لم يخاطبوا في القرآن بكلمات لا يفهمونها ذلك أن هذه الكلمات (الغيب، الشهادة، الله، الجنة، جهنم، الدنيا، الآخرة) كانت متداولة في معجمهم اللغوي، وفي ديوانهم الشعري، لكنها لم تكن متداولة بمفهوماتها الدينية التي جاءت في القرآن، وذلك هو ما أحدث لديهم ردة فعل منكرة لهذا الدين ولمفهوم النبوة برمته أحيانا.

كلمة "الله" كلمة صميمية
في النسق القرآني ولا تفوقها
كلمة أخرى لا في المنزلة ولا
في الأهمية

بتأملنا في المخطط العام للبنية الأساسية لرؤية القرآن إلى العالم، نجد أن هذه الرؤية محكومة بتصور خاص لله والإنسان وللوجود في العالمين: الدنيوي والأخروي، من أجل ذلك

اختار المؤلف هذه التقابلات المفهومية، لكنه نظرا لمحورية ثنائية الله والإنسان بالنسبة لباقي الثنائيات، جعلها موضوع درسه وتحليله.

العلاقة الوجودية بين الله والإنسان

قبل دراسة هذه العلاقة، يعقد إيزوتسو فصلا للتعريف بكلمة "الله"، باعتبارها الكلمة الصميمية الأعلى قيمة في النسق المفهوم القرآني: «كلمة الله هي أسمى "كلمة صميمية" في المنظومة القرآنية، ولا تفوقها كلمة أخرى لا في المنزلة ولا في الأهمية. وإن النظرة إلى العالم في القرآن مرتكزة على الله جوهريا، وطبيعي تماما أن يحكم مفهوم (الله) الكل من عل، ويترك تأثيرا في البنية الدلالية للكلمات المفتاحية جميعا»¹. ونجده يؤكد نفس الحقيقة في كتابه "المفهومات الأخلاقية الدينية" حيث يقول: «إن نظرة القرآن إلى العالم مرتكزة

1. الله والإنسان: 139.

على الله أساسا. فصورة الله تتخلل كليتها، ولا شيء يكون بمنأى عن علمه وعنايته. ومن الوجهة الدلالية يعني هذا على الجملة أنه لا يوجد مفهوم رئيس في القرآن يكون مستقلا تماما عن مفهوم الله¹. وسيستمر في التأكيد على هذه الحقيقة على مدار كل فصول الكتاب وهو يحل أوجه العلاقات الأربع.

فعلى مستوى العلاقة الوجودية، الله هو خالق الإنسان، وخالق كل شيء، والإنسان ما هو إلا مخلوق من مخلوقات الله، وإن كان أهمها على الإطلاق. والقرآن يركز على هذه الحقيقة كثيرا حتى إنه «يمكن أن يعد بمعنى من المعاني ترنيمة عظيمة في تمجيد الخلق الإلهي»². لذلك فإن المفهوم المحوري في هذه العلاقة هو مفهوم الخلق، ويرى إيزوتسو أن الفهم الصحيح لمفهوم الخلق والإحساس الحقيقي بالخلق يؤدي حتما إلى الإسلام. ومن هنا نفهم أن مفهوم الخلق عند العرب الوثنيين، وإن كان معروفا لديهم، وكانوا يقرون بأن الله خلقهم، إلا أنه كان فهما ضعيفا لم يؤثر في تصورهم للعالم وفي حياتهم العملية، ولأن مفهوم الله عندهم كان ملتبسا بعنصر الشركاء نسبوا الخلق إلى هؤلاء: ﴿أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا تَخْلُقُ فَتَشَابَهُ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ (الرعد:18).

إلى جانب مفهوم الخلق هناك مفهوم يرتبط به إلى حد كبير وهو مفهوم القدر أو المصير، فالله حين يخلق الإنسان لا يكون ذلك الخلق سوى نقطة البداية، أما شؤون الإنسان الدنيوية ومصيره فإنها توضع «تحت الاطلاع الصارم والمراقبة الدقيقة لله»³. وليس في هذا الاطلاع والمراقبة - الممزوجين بالعدل التام - ما يدع مجالا لأية نظرة تشاؤمية أو كئيبة إلى الحياة ومصير الإنسان فيها، كما هو

1 . المفهومات الأخلاقية: 68.

2 . الله والإنسان: 170.

3 . نفسه: 180.

الحال في النظرة الجاهلية التي جعلت الإنسان رهينا لصروف الدهر وعوائد الزمان، بل على العكس من ذلك، يعطي التصور القرآني للحياة السرمدية بعد الموت وعدا بأن ما بعد الموت والأجل هو الحياة الحقيقية، وهنا يلاحظ إيزوتسو بأن «الاختلاف بين النظرتين إلى العالم في هذه المسألة شبيهة تماما بالاختلاف بين الليل والنهار»¹.

العلاقة الاتصالية بين الله والإنسان

يتم الاتصال بين الله الإنسان في صورة تفاعلية متبادلة على مستويين: لفظي وغير لفظي، وفي كل مستوى نجد مفاهيم وتعابير مفتاحية تحدد طبيعة النظرة القرآنية إلى العالم من خلال هذه العلاقة:

الاتصال اللفظي من الله إلى الإنسان: ويشكله مفهوم أساس هو مفهوم الوحي، وهنا يقف إيزوتسو مطولا مع التصور ما قبل القرآني للوحي، والذي يتحدد من خلال ثلاثة مفاهيم: الجن والكهنة والشعر، ويخلص من ذلك إلى أن تصور العرب لهذه المفاهيم أثر على مواقفهم من النبوة.

أما مفهوم الوحي في المنظومة القرآنية، فإيزوتسو، يميز فيه بين مستوى كلامي parole، ومستوى لغوي Langue.

ففي المستوى الكلامي يعرف الوحي بأنه (كلام الله) ويؤكد ذلك بقوله: «ظهر الإسلام عندما تكلم الله»²، فإنزال الوحي ليس مجرد تنزيل لكتاب مقدس، «بل فهم منه أولا أن الله تكلم»³: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ

1 . نفسه: 179.

2 . الله والإنسان: 208.

3 . نفسه.

كَلَامَ اللَّهِ ﴿ (التوبة: 6)، ويشير في هذا السياق إلى خصوصية الوحي إلى موسى بالكلام.

في هذا المستوى الكلامي الله هو المتكلم والإنسان هو المستمع، ولأن رتبة الوجود مختلفة بين الله والإنسان، ولأن صفة الكلام بالنسبة لله عز وجل ليس فيها شيء مماثل للسلوك اللغوي البشري، كان أمر الوحي «سرا من أسرار المباحث الإلهية، لا يمكن فهمه من خلال الفكر التحليلي البشري، وتكون ظاهرة الوحي في هذا الاعتبار شيئا غامضا من الناحية الجوهرية، لا يسمح بالتحليل، إنه شيء يؤمن به فقط»¹.

ولأجل ذلك كله كان لا بد من وسيط يوصل كلام الله إلى الإنسان، وهو النبي عبر أنماط الوحي المذكورة في القرآن الكريم: الاتصال المبهم، والكلام من وراء حجاب، وإرسال الرسول.

أما المستوى اللغوي للوحي فيتجلى تحديدا في القرآن الكريم نفسه باعتباره عملا لغويا موضوعيا²، لا يقبل التبديل أو التحريف، وهنا تكون وظيفة النبي هو «أن يحفظ في الذاكرة نص الوحي حرفيا على نحو يستطيع فيه أن ينقله إلى قومه من دون تبديل حتى كلمة واحدة»³، وذلك كله ليس بهدف الحفظ في حد ذاته، بل للقيام بالمهمة - الهدف من تلقي الوحي وهي التبليغ «فالوحي لا يهدف إلى النجاة الشخصية لمحمد صلى الله عليه وسلم، لا يكلم الله محمدا من أجل الكلام فقط، لا بد للكلمات الإلهية من أن تمضي إلى ما بعد محمد

1 . نفسه: 211.

2 . نفسه: 243.

3 . نفسه: 242.

صلى الله عليه وسلم، ينبغي أن تنتقل إلى الآخرين»¹. ويشير إيزوتسو إلى أن هذه الخاصية للوحي هي أحد أسباب إعجاز القرآن في نظر المسلمين، فالقرآن هو الكتاب السماوي الوحيد الذي بقي في صورته الأصلية.

علاقة الله بالإنسان هي
علاقة تفاعلية تتمثل في
العناية الإلهية والاستجابة
البشرية

أما على مستوى الاتصال اللفظي من الإنسان إلى الله، فإن إيزوتسو يدرس فيه أساساً مفهوم الدعاء، الذي يعكس إيجابية الإنسان في علاقته مع الله، فـ « بدلاً من أن يظل الإنسان

سلبياً دائماً، يأخذ من ناحيته المبادرة في إقامة اتصال لفظي مع الله، ويحاول أن يتصل به بوساطة العلامات اللغوية»²: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنِّهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا﴾ (يونس: 12). لكن هذا الاتصال لا يكون إلا في حالات خاصة يكون القلب فيها «نقياً تماماً من الهواجس الدنيوية»³، وهنا تصبح اللغة - أي في الدعاء - مشبعة بالطابع الروحي، ولذلك يعرف إيزوتسو الدعاء بأنه: «حديث القلب الأكثر شخصية وحميمية مع الله»⁴. لكن هذا الدعاء وهذه الحالة الروحية المصاحبة له متى خفت انتقلت من مجرد ظاهرة مؤقتة إلى «عادة دينية ثابتة وعميقة الجذور»⁵ أي أصبحت مرادفة للعبادة: ﴿قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قُلْ لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَ كُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذَا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ (الأنعام: 57).

ولكي تكتمل صورة هذه العلاقة الموصولة عبر الدعاء من الإنسان، تكون الاستجابة من الله، واستجابة الله لدعاء الإنسان يراه إيزوتسو علامة بارزة

1 . الله والإنسان: 241.

2 . نفسه: 260.

3 . نفسه: 261.

4 . نفسه.

5 . نفسه.

مميزة لصفات الله عن غيره من الآلهة المزيفة: ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطٍ كَفْبِهِ إِلَى الْمَاءِ لِيُلْغِ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ (الرعد: 15).

أما الاتصال غير اللفظي من الله إلى الإنسان فيتمثل أساساً في الآيات التي ينزلها الله لهداية الإنسان، ومن ثم فإن المفهومات الأساسية في هذه العلاقة هي: مفهوم الآيات، ومفهوم الهداية أو الهدى، وتدرج تحت كل منها مفهومات وتعابير كثيرة.

ويرى إيزوتسو أن آيات الله هي «رموز تشير إلى التدخل الإلهي في شؤون البشر بوصفها بينات للعناية الإلهية والحكمة المقدمة من الله لخير البشر على هذه الأرض»¹، ويتمظهر هذا التدخل الإلهي في صفات مختلفة بل ومتقابلة: صفات الرحمة والمغفرة والنعمة والتبشير، وصفات الانتقام والغضب والعقاب والإنذار. أما استجابة الإنسان لهذه الآيات فإما بالتصديق والتسليم، ثم الشكر على النعمة والخوف من العقاب الموصل إلى التقوى، أو يكون بالتكذيب، ومن ثم الجحود المؤدي إلى الكفر.

والإنسان في هذه العلاقة مزود بوسائل لفهم الآيات تتمثل في: القلب واللب والعقل والفهم والتفكر والتذكر والفقه والتوسم.

أما مفهوم الهداية، فإنه في علاقته بمفهوم الآيات يوحى «بتطابق شكلي بين حقلين شقيقتين يعكسان جزء الحقيقة نفسه... بطريقتين مختلفتين»² وهذا ما دعا إيزوتسو إلى اعتبار هذه الخاصية في بعض الحقول الدلالية تؤكد لنا حقيقة

1 . نفسه: 186.

2 . الله والإنسان: 195.

أن «القرآن يفسر نفسه»¹. وبناء على ذلك فإن الهداية تقتضي من الإنسان استجابة ما، إما الاهتداء - في مقابل التصديق للآيات - أو الضلال - في مقابل التكذيب - لكن فهم مفهوم الهداية لا يتأتى إلا بإدخال تعبير مفتاحي آخر في الحسبان وهو تعبير: الطريق المستقيم، فالإنسان إذا سلك هذا الطريق كان ذلك هو الاستقامة، وأدى به ذلك إلى الرشد أو القصد ومن ثم إلى الجنة، أما إذا حاد عن الطريق كان ذلك هو العوج، وأدى به إلى العمه والتكبر والنتيه والحيرة والغواية ومن ثم إلى جهنم.

وبخصوص الاتصال غير اللفظي من الإنسان إلى الله، فهو يتم عبر العبادة، وقد درس إيزوتسو هذا النمط من الاتصال من خلال مفهوم الصلاة، واعتبرها: «الطريقة البشرية لإقامة اتصال مباشر مع الله من خلال الصورة المأمور بها في الطقس»²، و«أحد الأعراف الرئيسية في الإسلام لها مكانة خاصة بين الفرائض الدينية بوصفها ملمحا مميزا للأمة المسلمة»³، ويمثل السجود فيها ذروة الاتصال⁴.

علاقة العبد بالرب

ذلك وجه آخر للعلاقة بين الله والإنسان، ويؤكد إيزوتسو في بداية تحليله لهذه العلاقة، أنها مبنية أساسا على تصور خاص لله - عز وجل - بوصفه الرب المطلق لكل شيء، فعبر هذا التصور تبلور حقل دلالي جديد تضمن العديد من التعابير المفتاحية، وعلى رأسها مفهوم الإسلام - بالمعنى المصدري - بمعنى التسليم، فموقف التسليم المطلق من الإنسان لله نابع من اعتقاده بالربوبية المطلقة له،

1 . نفسه.

2 . نفسه: 204.

3 . نفسه: 204.

4 . نفسه: 205.

وهنا نجد مفهومات: الطاعة المطلقة والخضوع والتضرع والخشوع. ويرى إيزوتسو أن اختيار الله عز وجل للفظ الإسلام اسماً لهذا الدين الجديد يوحي حقيقة بالأهمية القصوى لمفهوم الإسلام الذي تحول إلى حدث مهم في حياة المسلمين انقطعت به صلتهم بما قبله، أي بالجاهلية. ولذلك فإن المفهوم المقابل والمضاد لمفهوم الإسلام سيكون هو مفهوم الجاهلية، بوصفه «صفة شخصية وليس اسم عصر تاريخي»¹. أما المفهومات المشكلة للحقل الدلالي للجاهلية، فهي: الاستغناء والطغيان والاستكبار، وهي كلها صفات نابعة من خصائص الشخصية الجاهلية التي تقوم على الثقة المطلقة بالنفس، والتفاخر بالقدرة والإحساس بالاستقلال المطلق، وعدم الانحناء لأي سلطة.

ويقف إيزوتسو مطولاً مع مفهوم الإسلام قبل نزول القرآن الكريم، باحثاً عن جذور دلالية لمعنى التسليم عند العرب الوثنيين، وينتهي إلى أنهم وإن لم يعرفوا هذا المفهوم، فقد عرفوا مفهوماً آخر شكل قنطرة عبور إلى المصطلح الجديد وهو مفهوم الحلم الذي يتجلى مظهره في الوقار وضبط النفس والعقل، ويخالف الجهل والعمى العقلي...، ثم يخلص من تتبعه الدقيق لهذه المعاني من خلال الشعر الجاهلي إلى نتيجة أن مفهوم الإسلام « كان ... تعديلاً جذرياً لمفهوم الحلم »².

إن هذه العلاقة القائمة هنا على تصور الله ربا والإنسان عبداً، تحيلنا على مفهوم محوري آخر هو مفهوم الدين. والدين كما - يرى إيزوتسو - له معنى مزدوج، فهو من جهة الله يعني: السلطان المطلق: ﴿وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا﴾ (النحل: 52)، وهو من جهة الإنسان طاعة مطلقة، أي عبادة:

1 . الله والإنسان: 269.

2 . نفسه: 290.

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ﴾ (يونس: 104)، وهذه العبادة يعتبر الإسلام المظهر الخارجي السلوكي لها. لكن الدين الذي ينشأ في البداية عن طاعة شخصية صرفة، سرعان ما يبدأ في التعين ويستمر في ذلك إلى أن «يقترّب شيئاً فشيئاً من مفهوم "الملة"»¹ ويصير مرادفاً أحياناً لها: ﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ (البقرة: 119) ﴿قُلْ إِنِّي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ . دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ (الأنعام: 162-163).

العلاقة الأخلاقية:

وُجِدَت الأمة الإسلامية في التاريخ، حين كانت استجابة الإنسان إيجابية ومناسبة لطبيعة الإنعام والعناية الإلهية، وحين كانت رؤية الإنسان للحياة والوجود تنبني على هذه الاستجابة الإيجابية

يعلن إيزوتسو في البداية أن «مفهوم الله أخلاقي أساساً»²، ولذلك كانت الأخلاق جزءاً متمماً للدين. والناظر في هذه الخاصية الدلالية لمفهوم «الله» يمكنه أن يميز بين مظهرين أو نمطين من الأخلاق الإلهية: أخلاق الخير والمحبة والرحمة، وأخلاق العدل الصارم والحساب المنصف والعقاب والانتقام الشديد.

وكل من النمطين يجد استجابة أخلاقية من الإنسان، إما بشكر النعمة المفضي إلى الإيمان، وإما بالكفر وعدم الاعتراف بالجميل.

ويختتم إيزوتسو هذه العلاقة ويختتم الكتاب معها بحديث مقتضب عن مفهوم الوعد والوعيد الذي يعكس نمطي الأخلاق الإلهية، فالوعد يتضمن كل معاني التبشير، والوعيد يتضمن كل معاني الإنذار، ثم يلح في النهاية إلى ما ارتبط

1 . نفسه: 302.

2 . نفسه: 305.

بمفهوم الوعد والوعيد من مسائل كلامية بعد نزول القرآن وهو الأمر الذي يخرج عن نطاق كتابه هذا.

إن هذه الأنماط الأربعة من العلاقة بين الله والإنسان في صورها الإيجابية، أي حين تكون استجابة الإنسان إيجابية ومناسبة لطبيعة الإنعام والعناية الإلهية، هي التي أوجدت الأمة المسلمة في التاريخ، وبناء على ذلك يكون التوصيف الدقيق للأمة المسلمة أنها «جماعة من الرجال الذين يعترفون بها [أي بهذه العلاقات] ويختارون الجانب الإيجابي من المسألة أساساً لنظرتهم إلى الحياة والوجود»¹.

وتتمثل الاستجابة الإيجابية في العلاقة الوجودية في اعترافهم بـ "الله" خالقاً لهم وموجداً ومعنياً بمصيرهم. أمّا الاستجابة الإيجابية في علاقة الاتصال فتتمثل في استجابة الإنسان استجابة راضية مخصصة للنداء الإلهي واتباع هدايته وتوجيهه إلى طريق النجاة. وأمّا في علاقة الربّ - العبد فتعني الاستجابة الإيجابية أن يطرد الإنسان عن نفسه بقايا الجاهلية السابقة ويلجأ إلى الله "سيده" كما يليق حقاً بالعبد. وتعني العلاقة الأخيرة أن يعبر عن الشكر لفضل الله عليه وأن يخشى عقابه².

وإذا ما تأملنا هذه الجوانب الإيجابية في علاقة الإنسان مع الله وجدنا مفهوم الأمة مستبطناً في التعريف الذي أورده إيزوتسو إنها: «جماعة من البشر أسلمت نفسها إلى الله»³.

تتضمن إذن العلاقة بين الله والإنسان ممثلة في هذه الأنماط الأربعة وما ينتج عنها، النظرة القرآنية إلى العالم التي جعلها إيزوتسو هدف الدرس الدلالي للقرآن الكريم، ومنطلقه في نفس الوقت.

1 . الله والإنسان: 117.

2 . نفسه: بتصرف.

3 . نفسه.

3. ملاحظات واستنتاجات:

بعد هذا العرض لمنهج الكتاب ومضمونه، يتعين الوقوف عند مجموعة من الملاحظات لا يمكن لدارس الكتاب إغفالها، وأراها متممة لهذا العرض، سأحاول إجمالها في الآتي:

الموقف من الوحي

يقف إيزوتسو موقفا إيجابيا من ظاهرة الوحي، ويفسرها كما جاءت في القرآن الكريم بكثير من الدقة والموضوعية، بخلاف كثير من المستشرقين

يشكل تفسير المؤلف للوحي سمة مميزة للكتاب وصاحبه، فعلى خلاف المستشرقين الذين بنوا أعمالهم في دراسة القرآن الكريم على فكرة نفي المصدر الإلهي للوحي، ودافعوا بشدة على نسبة القرآن إلى النبي صلى الله

عليه وسلم، نجد إيزوتسو يقف موقفا إيجابيا من ظاهرة الوحي، ويفسرها كما جاءت في القرآن الكريم، بكثير من الدقة والموضوعية. ولنا أن نقارن كلام إيزوتسو عن الوحي بكلام نولدكه مثلا في تاريخ القرآن وهو يتحدث عن كفيات الوحي: «وصلتنا معلومات كثيرة أن محمدا كثيرا ما اعترته نوبة شديدة لدى تقبله الوحي، حتى إن الزبد كان يطفو على فمه، ... وكان يصرخ كالفصيل، ويتفصد عرقا حتى في أيام الشتاء... هذه النوبة... يسميها البخاري والواقدي "برحاء" لكن "فايل" توصل إلى أن محمدا كان يعاني نوعا من الصرع»¹، ثم يقول: «... فمن الضروري أن نصف ما كان يغشاه بحالة من الاضطراب النفسي الشديد»² ثم يقول: «هذا الوضع الجسدي والنفسي المضطرب إلى درجة المرض يفسر الأحلام والرؤى التي رفعتها فوق مستوى العلاقات البشرية المعتادة... ولا

1 . تاريخ القرآن، تيودور نولدكه، تعديل: فريدريش سفالي، ترجمة جورج تامر، منشورات الجمل، كولونيا، ألمانيا، 2008م، 23.

2 . نفسه.

يجوز أن نفعل أن معظم الوحي حدث ليلاً كما يبدو حين تكون النفس أكثر قابلية لاستقبال التخیلات والانطباعات النفسية»¹.

الموقف من الشعر الجاهلي

اعتمد إيزوتسو في تحليله للمفهومات القرآنية على الشعر الجاهلي، وذلك انطلاقاً من رؤية خاصة للدرس الدلالي التعاقبي الذي يرصد الدلالات في تطورها، والناظر إلى هذه الظاهرة اللافتة للنظر في الكتاب يحصد نتيجتين:

الأولى: بخصوص أهمية الالتفات إلى الشعر الجاهلي، واعتباره مصدراً لدراسة الدلالات الوضعية للمفاهيم القرآنية، فدارسو هذه المفاهيم عادة ما يكتفون - في دراستهم لمعانيها الوضعية - باستشارة المعاجم التي ألفت أصلاً في فترة لاحقة على نزول القرآن الكريم، في حين أن الديوان الشعري الجاهلي قد يكون فيه الكثير من الفائدة لهذه الدراسات.

الثانية: بالإضافة إلى التوظيف الجيد والممتع للشعر في الدراسة نلمح موقفاً معتدلاً من قضية النحل في الشعر الجاهلي، التي كانت شائعة عند المستشرقين، ولأن إيزوتسو يرى أن الجزيرة العربية لم تكن تخلو من بعض الأفكار الدينية المسيحية واليهودية - كما تدل على ذلك الخريطة الدينية للجزيرة العربية قبل نزول القرآن - فقد استبعد أن تكون تلك الأشعار المفعمة ببعض الأفكار الدينية منتحلة².

منهج التعامل مع مفاهيم القرآن ومصطلحاته / موقفه من الإسقاط المصطلحي

وهنا نؤكد ما جعله إيزوتسو قاعدة منهجية تحدد كيفية «استخلاص الإطار المفهومي الأساسي للقرآن على الجملة»³، وهي: «أنه علينا أن نقرأ القرآن من دون

1 . نفسه: 25.

2 . انظر: ص 133.

3 . الله والإنسان: 112.

أي تصور قبلي، علينا، بتعبير آخر، أن لا نحاول أن نقرأ فيه الفكر الذي طوره وأحكمه المفكرون المسلمون في الأزمنة التي أعقبت نزول القرآن في محاولتهم أن يفهموا ويفسروا كتابهم المقدس كل منهم حسب موقعه الخاص. علينا أن نحاول فهم بنية تصور العالم في القرآن في صورته الأصلية، أي كما قرأه وفهمه صحابة النبي وأتباعه المباشرين¹.

يؤكد إيزوتسو على أن قراءة القرآن يجب أن تكون من دون أي تصور قبلي، كما قرأه الصحابة والتابعون

ولئن كانت هذه القاعدة تتفق إلى حد كبير مع القواعد المقررة في علم أصول التفسير وقواعده، فإنها تتسجم مع الرؤية الخاصة لإيزوتسو للعلم الدلالي ولقواعد الدرس الدلالي الذي وضعه في الفصول الأولى من كتابه. وتلك أحد أهم التقاطعات المنهجية التي يمكن أن تمثل أساسا للتعامل مع بعض مناهج تحليل النصوص في صورها المتبلورة في الثقافات غير الإسلامية.

الموقف من اللغة العربية

وهنا نقف مع الكتاب وقفيتين الأولى تأكيدية والثانية تصحيحية.

أولاً: نؤكد على موقفه الموضوعي من مسألة أصل اللغات، وخاصة موقفه من الأصل السريالي لبعض الألفاظ العربية وتشكيكه في صحة هذا الأمر، ونمثل لذلك بلفظ "نبي" الذي اعتبره الكثير من المستشرقين مأخوذاً من الأصل العبري «نابي»، وهنا يوضح إيزوتسو الخلط الواقع لدى هؤلاء بين الكلمة والمفهوم، فالمفهوم الديني لكلمة "نبي" ينتمي إلى الفكر التوحيدي، لكن الكلمة عربية

1 . نفسه: 112، وانظر ما قاله في «المفاهيم الأخلاقية الدينية في القرآن» ص: 63 عن كتب التفسير وأنه منهجياً يحظر عليه التمويل عليها «ويمكن أن تستخدم في الأعم الأغلب مساعدات قيمة، وعلينا أن لا ننسى أنه قد تبين أنها مضللة أكثر منها كاشفة، إلا إذا كنا حذرين جداً في الإفادة من البنية التي تقدمها».

القالب، وكون الكلمة لم تستعمل كثيرا عند الأعراب «لا ينبغي أن يعني أن الكلمة نفسها استعارة مباشرة من العبرية. إن كلمة نبي في بنيتها وفي معناها الجذري [الوضعي] تنتمي إلى الأرومة العربية الحقيقية [إلى المصدر العربي الأصلي]¹.

اللغة العربية قادرة على
الإبانة أكثر من غيرها عن
مراد الله سبحانه، وليس
كما قال إيزوتسو بأن اختيار
الله لها لم يكن بسبب قيمتها
الحقيقية من حيث هي لغة.

ثانيا: نصح ما جاء في حديثه عن الجانب اللغوي من الوحي، أي اللغة العربية وسبب اختيارها لتكون لغة الوحي، حيث ذهب إلى أن اختيارها لم يكن لمزية خاصة فيها، بل حاجة إليها لأنها كانت لغة من نزل فيهم القرآن، يقول في مبحث "الوحي بالعربية": «تقوم النظرة

القرآنية إلى هذه المسألة على الوعي الثقافى الواضح جداً لحقيقة أن كل أمة لها لغتها، وأن العربية لغة العرب، وهي بهذه الوظيفة واحدة فقط من لغات كثيرة. وإذا اختار الله تعالى هذه اللغة فإن ذلك لم يكن بسبب قيمتها الحقيقية من حيث هي لغة، بل فقط بسبب فائدتها ونفعها، أي بسبب أن الرسالة كانت موجّهة أولاً إلى المتكلمين بالعربية. ونرى القرآن نفسه يعلن المرة تلو المرة أن هذا الكتاب أنزل بالعربية فقط لتسهيل الفهم ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (يوسف: 2).

ولا يخفى على العارفين بخبايا اللغة العربية أنها لغة قادرة على الإبانة عن مراد الله سبحانه أكثر من غيرها من اللغات بسبب ما تميزت به من تنوع دلالي وثرى معجمي، وأوضاع مختلفة من الدلالة على المعاني تتنوع بحسب التركيب والتصريف والصوت... إلى آخر ذلك من المزايا التي لا نجدها في لغة غيرها.

1. الله والإنسان: 245.